في ضوء علم الإيزوتيريك

أنسنة العلم الأكاديمي

هل هي غاية أم حاجة؟!

قرأتُ مؤخّراً رواية شيقة لكاتبة معروفة جعلتني استشفّ إلى أي درجة قد تخلو حياتنا اليومية من الإبداع إن هي افتقرت إلى الجديد الفكري والمشاعري، وحتى الحسي، كتتمّة للمعطيات التي تغذي النفس وتخرجها من دائرة الاستهلاك اليومي.. فالمطالعة والاطلاع، أو الأصح الثقافة، غذاء ضروري للذهن وللنفس البشرية، تضفي عليها الراحة والتجدّد والمقدرة على التواصل.

في هذا السياق لو نحن قارنا بين ما تطرحه الرواية مثلاً، أو العمل الأدبي، من تصوير لشخصية معينة تخوض تجربة معينة في انفعالاتها وتفاعلاتها، في معاناتها وتوصّلاتها، في خيبتها وسعادتها.. لو قارنا ذلك مع أي كتاب علمي نطّلع عليه، نستشف رابطاً إنسانيا بين العمل الأدبي وقارئه لا يبدو جلياً في الكتاب العلمي وإن تكن غايته خدمة المصلحة الإنسانية.

فالعمل الأدبي نافذة على كوامن النفس البشرية، تنقل تجربة الكاتب إلى القارئ فتخلق بينهما حيزاً نابضاً من المشاركة الإنسانية. فيما الكتاب العلمي قد لا يحاكي النفس على هذا النحو، إذ يقدّم اكتشافات أو معلومات قد تقود إلى اكتشافات مستقبلية هي من دون شك غذاء فكري، ولكنها لا ترتقي لأن تكون تجربة متكاملة..

هذا التباين جعل المادة العلمية تصنف عامة على أنها جافة، أو جعل العلم (الأكاديمي) «يقدّم الوسائل التي يتعرّف بها إلى المعرفة»، بحسب تعبير علم الإيزوتيريك، أو علم الوعي الإنساني الذي يُعنى بتقديم المعرفة كتقنية حياتية مبسّطة، تقنية معرفة النفس البشرية. فليس من الضرورة أن يكون هناك «تخاصم» بين العلم وإنسانية الإنسان، ولا جفاء أو تباعد. لذلك قدّم علم الايزوتيريك، مؤلّفات تزخر بها المكتبة العربية من شأنها أن تزيل عن العلم «وصمة» الجفاف في ما يقدّمه من صياغة أدبية - علمية فريدة جعلت المعرفة المختبرة في متناول كل مريد. ويحضرني في هذه اللحظات ما جاء في مقدّمة كتاب «أسرار تكوين الجسم البشري» من وصف أدبي - علمي - شفاف لعلاقة المعرفة بالنفس فجاء على النحو التالي:

«لعل أشدّ ما يغوي الرجل هو المرأة، وأشدّ ما يغوي الباحث الرصين هو المعرفة.. وكالحسناء إذا ما كشفت عن محاسنها، فإن المعرفة تعرّي نفسها حين تجد الباحث أهلاً لها، وتبوح بالأسرار.. وكأنما تمطره بوابل من القبل غير المتوقّعة. إنها صورة الحب إلى حد الولع.. الحب العاطي لكل حق حقّه.

وإذا ما تنامى هذا الحب على المعرفة - على الصدق والمساواة، فهل من سعادة أعظم للجنسين؟!»

قد يخطئ من يظن بأن العلم جاف وبعيد عن الإنسانية، ولكن العلم الأكاديمي الذي نعرفه اليوم لا يزال يقدّم مادته بعيداً عن مفهوم تكوين النفس البشرية وحاجاتها التي تتخطى الجانب المادي. ولعل اشد ما جذبني إلى مؤلفات علوم الايزوتيريك، هو تجدّدها وتنوّعها في تعاطيها الإنساني مع القارئ وهي تقدّم حقائق وتجارب علمية مختبرة ترفع من مستوى وعي النفس في كل شأن ومجال. فلا يكف عن إغواء الفكر والمشاعر، إذ يروي النفس في عطشها إلى المعرفة ويجذبها إلى عالمها بمغناطيسية تشبه عشق الحواس للجمال، وعشق الفكر للإبداع، وعشق الجنسين لبعضهما..

ومنذ أن باشرت مطالعة مؤلفات الايزوتيريك ومتابعة محاضراته منذ أكثر من عقد ونيّف، بدأت اروي هذا الظمأ وبدأت احصل على إجابات لأسئلة كانت تراودني وتحيّرني.. أسئلة كانت بمثابة أسرار خافية بالنسبة لي، كما هي بالنسبة لكثيرين. ففي كلمة سر إغواء فكري يستفز حب المعرفة، معرفة حقيقة ما تخفيه الأسرار.. أجل في الأسرار إغواء وجاذبية واستثناء، لأن كشفها يعد بالكثير مما تتوق النفس إلى معرفته، إلى ما يروي ظمأها وهو يعيد إليها إنسانيتها في آن.. فأنسنة العلم باتت حاجة ملحّة في زمننا، وليست صدفة أن يُقدم علم الايزوتيريك على إكساب العلم صفات إنسانية تجعل المعرفة تقنية وممارسة حياتية، في هذا الزمن الذي انكسر أمام سلطان المادة وبريقها.

نعم نحن نحتاج لأن يكون العلم إنسانيا، وكون «الحاجة أم الاختراع» جاء علم الايزوتيريك ليجعل من المستقبل، مستقبل العلم الإنساني.

بقلم: هيفاء العرب
مهندسة معمارية وباحثة في علوم الايزوتيريك
www.esoteric-lebanon.org
Haifa.circles.3@gmail.com